مقدمـــة المؤلـــف

أحمدك اللهم حمدا يوافى نعمك، ويكافئ مزيدك، وأسألك يا إلهى أن تصلى وتسلم وتبارك على رحمتك المهداة سيد ولد آدم، نبيك ورسولك محمد وعلى آله، كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وعلى آله فى العالمين، إنك حميد مجيد .

بعض الناس يرجعون العبقرية إلى عامل الوراثة، فيجعلون من العبقرى نسخة مكررة من عباقرة أجداده الأذكياء .

لقد أغفل هؤلاء أن الذى يجعل الإنسان عبقريا ليس فقط ما يضاف إليه قبل أن يخرج من بطن أمه، وإنما ما يضاف إليه بعد خروجه من عالم الأجنة إلى عالم الطفولة من تربية وتكوين فى رحاب الأسرة والمجتمع، وتجربة وخبرة وعقيدة ودين ، وسلوك قويم ، هاته المكونات هى التى تصنع الإنسان، وتصنع قوته الفردية ، وتكون خصائصه الذاتية .

وقد يولد الناشئ من أبوين معدمين، عضهما الفقر بنابه ، وضنت عليهما الدنيا حتى باليسير من القوت فيظل مغمورا مطمورا وقد أنكر الزمان عليه خلقه ووجوده وإنسانيته، وملامح العبقرية المرسومة فى قسمات وجهه وبين ضفاف قلبه ، فلا يعبأ التاريخ بميلاده، ولا بتسجيل اليوم الذى خرج فيه إلى النور، ولا بأطوار حياته الأولى . . . وقد تمتد به المحنة فيطالع هذا الطفل دنياه بوجه أسود، وقد يهبط به الحظ أكثر فأكثر فإذا هو يتيم الأبوين ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى : ٦] وإذا به فى عداد السلع يباع ويشترى فى سوق العبيد ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف : ٢٠] على أن جميع هذه المحن لا تقف عقبة فى سبيل العبقرية والنبوغ ، فإذا بنا نجد ذلك الطفل ينمو ويزدهر، تظهر عليه علامة التفوق والقبول بإذن الله وينمو تحت عين الله ورعايته ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] فما يكاد يواجه إقبال الشباب أو الكهولة حتى تسفر حياته عن موهبة فذة تتحدى الزمان والمكان

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ثم لا يتهيب التنقل بين الأقطار والبلدان مادام مطمئنا إلى ما هيأته له شخصيته النفاذة من قدرة وطموح: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢١ ـ، ٢٢] ثم يبلغ به الاعتزاز بالنفس فيفرض شخصيته على سلطان زمانه ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٠ ـ ٢٢] بل يبلغ به الاعتزاز فيتجاوز المألوف المعهود ويرفض أنصاف الحلول: ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] ، ثم تدفعه العزة والإباء إلى فرض شخصيته وفكرته على سلطان زمانه : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

وقد تدفعه العزة والإباء إلى مغادرة الأرض - مرة أخرى - إن جهلت قيمته، وجحدت قدره، فيتابع مسيره فى أرض الله ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] يمشى فى مناكبها ويأكل من رزقه واثقا بأن نصيبه منه لن يفوته مادام معتقدا بالله، مؤمنا بذاته، واثقا من مقدرته الشخصية على اجتياز الصعاب، والتغلب على العقبات، كما قال رسول الله ﷺ وهو عائد من الطائف: « يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه »، وقد يسوقه الطالع الأيمن إلى بلد ناء يستقبل فيه استقبال القادة الأبطال بأناشيد تقول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

ثم لا يمضى القليل من الزمن حتى يثبت أنه الضوء الذى يشع فى رحاب وطنه الجديد . . . ثم يتخطى أسواره وجدرانه ليضىء فى أكثر من مكان ، وأكثر من وطن : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ [يوسف: ٥٦] وإذا التاريخ الذى تنكر له طفلا يتغنى بآثاره المبكرة ، وعطاءاته الفذة ، ويتولى تمجيد مآثره ، وتخليد الثناء عليه، ويضطلع بتسجيل عبقريته بقلم من نور ، على ورقة من ذهب .

فيا أيها المسلم كن طريقا إلى غيرك، ودع الدنيا تسير قوافلها إلى الأمام ثم لا تغتر بنفسك، فقد يطالعك العبقرى من وراء حجاب، اعلم أن الأنانية ومحاولة كبت المواهب، وستر أشعة الكواكب لا تغنى شيئا عن الحاقدين، بل هى أبلغ فى إظهار الموهوبين ، وإعلاء مكانة النابغين .

وبما أن لكل بداية نهاية فالشمس تشرق على العالم ويتألق نورها فى الأفق مرسلا أشعته الذهبية ضياء ينير طريق البشر، قد تجاوز حدود الأفراد والشعوب والأقطار، لكن مهما عظم هذا التألق، ومهما قوى هذا الإشعاع فلا بد للشمس أن يدركها المغيب، وللضوء أن يختفى، وللأشعة أن تنمحى، وهذا مصير كل حى ، فالإنسان مهما ذاع صيته، وبلغت شهرته، ومهما ملأ الدنيا نشاطا وعطاء فلا بد لهذا كله أن يتوقف ، لا بد للشعلة أن تنطفئ بالموت .

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ، « اللهم كبرت سنى، وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك » (١) ، إلا أن الفرق بين العبقرى وغيره هو أن العبقرى وإن مات فحياته مستمرة ما بقى الليل والنهار، قد تجاوزت حياة فرد أو طائفة من الأفراد ، ومغزى ذلك أن العبقرى وإن ذهب فعبقريته هى الباقية بعد ذهابه .

إنى أقدم- بهذا الكتاب - مثلا يحتذيه الشباب فى العصامة والطموح والكفاح، وتجنب اليأس والاستسلام من أجل إثبات الذات ، ومقاومة الشدائد والمحن، والصبر والصمود، دون تخاذل أمام التحديات ومناوأة الحساد، ومكايدة الحاقدين وإن علت مكانتهم وطغى سلطانهم .

(١) الدعاء لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى الله فى الخالدين

هذا الكتاب إنما هو توعية وحفز للجيل الحاضر الذى عجز أن يبنى بلدا عبقريا وأمة سطًا ،وهو كذلك لأبنائنا وأحفادنا من الأجيال القادمة الذين ننتظر على أيديهم ما هو أعظم وأجل شأنا،وإنما أخص الجيل الحاضر بالتوعية والتحفيز لأن الكثير من الناس اجترأ فيه على العظمة،فبخسوا حقوق العظماء الحقيقيين ، بل أمعنوا فى الغض من سموهم وعلو منزلتهم،فلا خير فى إنسانية لا تعرف حق عظمائها ولا خير فى إنسانيةٍ العبقرية فى قديمها وحديثها عندها بشيء .

إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصى نواحى مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحيانا أن يتزيدوا فى نواحى هذه العظمة ، ويعملوا ما فى وسعهم فى تبرير العيب وتكميل النقص تحمسا للنفس ، وإثارة لطلب الكمال .

أما نحن ـ المسلمين ـ قد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجز ، حالت بيننا وبين الاستفادة منهم والاقتداء بهم فهذه السدود كثيرة ،وهى التى تفرض علينا أن نوفى العباقرة المسلمين حقهم من التوقير،وأن نصورهم عباقرة كما خلقهم الله ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق فى التصوير مع علمنا أن العبقرى مهما عظم له خطيئات وإلا ما كان إنسانا،والعصمة والكمال لله وحده .

لقد تتبعت فى هذا الكتاب المحاور الآتية:

١-التعريف بالعبقرية والعبقرى .

٢-الطرق الموصلة إلى العبقرية وهى كالتالى :

أ ـ تقوى الله .

ب ـ وفرة العلم .

جـ ـ الخلق العظيم والأدب الرفيع .

د ـ التربية والتكوين .

هـ ـ القدوة الحسنة .

٣ـ نماذج من العباقرة ذكرانا وإناثا : أبو بكر ـ عمر ـ عثمان ـ على ـ فاطمة الزهراء.

وقد حاولت جهد الإمكان أن أرجع الكلام إلى قائله، وأن أضيف العلم إلى صاحبه لما فى ذلك من بركة العلم والانتفاع به، وأشرت إلى ذلك فى الهامش، إلا أننى أجدنى أحيانا عاجزا عن الإشارة إلى رقم الصفحة لأن الكثير من الكتب التى قرأتها أرجعتها إلى أصحابها بعد الانتهاء من مضامينها منذ زمن طويل، والرجوع إليها صعب المنال، فاكتفيت بالإشارة إلى عنوان الكتاب فقط، ولا أدعى علما ولا فضلا ولا نبوغا ولا عبقرية، فإنما أنا تلميذ من استشهدت بكلامهم وحكمهم، وكفى بالتلمذة على يد الفضلاء فضلا ونعمة، ولست إلا جامعا مرتبا لما قالوا، وليس لى من الأمر شىء ما أنا إلا كما قال ابن النديم فى الفهرست عن العتابى أنه قال: « لو قيل لأشعاره ارجعى إلى أصحابك لما بقى له شىء » .

وأخيراً، أرجو من قارئ هذا الكتاب ـ قليله أو كثيره ـ أن يمدنى بدعوة من دعائه الصالح عسى الله أن ينظر إلى نظرة فيرحمنى ، وأسأل الله تعالى مخلصا له الدعاء أن ينفع بهذا الكتاب سائر عباده، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وصدقة جارية، وعلما ينتفع به ، انتفاعا حسنا إلى أجل مسمى ، وإنه سميع مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين .

الحسين بن مسعود

تعريف العبقرية

جاء فى معجم لاروس أن العبقرية تعنى قوة الخلق والإبداع عند الفنان أو الأديب أو العالم [١] وبتعريف الأقدمين تعنى الفراسة والخبرة، وهى مشتقة من كلمة "عبقرى" وهو ضرب من البسُطِ الفاخرة المنسوبة إلى قرية عبقر [٢] .

قال ابن عباس: العبقرى الطنافس الثخان منها، وقال الحسن: هى البسط وقال مجاهد: الديباج، وقال القتبى: كل وشى عند العرب عبقرى ويقال عبقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بسط منقوشة. وقال الأنبارى: إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل، وقال الخليل: كل نافس فاضل فاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرى. ومنه قول النبى ﷺ فى عمر رضي الله عنه: « فلم أر عبقريا يفرى فريه » ، وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قول النبى ﷺ : « فلم أر عبقريا يفرى فريه » فقال : رئيس قوم وجليلهم وقال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

وقال لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر [٣]

وقال الجوهرى : « العبقرى موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن » ثم نسبوا إليه كل شىء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوته. . فقالوا: عبقرى وهو واحد وجمع وفى الحديث: « إنه كان يسجد على عبقرى» وهو هذه البسُط التى فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظلم عبقرى، وهذا عبقرى للرجل القوى » [٤].

والعبقر المرأة الطارة الجميلة . . . والعبقرى هو الكامل فى كل شىء ، السيد الذى ليس فوقه شىء ، القوى الشديد، المتفوق المبرز [٥] .

(١، ٢) معجم لاروس ١/ ٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٢٤ .

(٤) المرجع السابق ١٧/ ١٢٥ .

(٥) معجم لاروس ١/ ٨ .

والعبقرية عند المحدثين تعنى العلم والموهبة والامتياز على سائر أبناء العصر .

وقد عرف العالم الإيطالى «لاومبروزو» العبقرى فقال: « يكون العبقرى طويلا بائن الطول، أو قصيرا بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره ، أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس ، ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور، وفرط الحس، وغرابة الاستجابة للطوارئ فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب ، وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكانة والفراسة ، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله » (١) .

والعبقرى من خلال هذا التعريف وغيره تتجلى فيه جلائل الأعمال وعظائم المساعى والخصال ، فهو قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، وعمق التفكير . . . ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ، ثم لا معنى لها إذا فراغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها .

إنه رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين، أنه رجل ممتاز موهوب فى جميع الآراء ، معرفته ليست بالأمر اليسير لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى غيره، وقد يكون العبقرى نمطا وحيدا فى التاريخ كله لا نظير له فى أخلاقة وصفاته وإن ساواه فى القدر أنداد وقرناء، متسع الجوانب، متعدد النواحى، يأخذ من كل فن طرف، لا تقتصر شهرته على بلد واحد، وإقامته على قطر واحد، بل يعم نوره الأقطار فى مشرقها ومغربها ، فهو إذن صورة شاملة عن الحضارة فى أزهى عصورها ، بل يقوم مقام الحضارة ، ويقوم بدور الشهادة على الناس : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] فهو متفرد فى عمله ، فلا يقدر أحد أن يصنع مثل صنيعه ، ولقد أطلق النبى ﷺ على عمر بن الخطاب هذه الصفة فقال: «لم أر عبقريا يفرى فريه» وفرى الفرى أى أتى بالعجب ، وهى كلمة لا يقولها إلا

(١) عبقرية عمر ص٢٠ .

عظيم العظماء خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال .

والعبقرى يملك حظا وافرا من الملكة الروحية إلى جانب ما عنده من الملكة الذهنية ، والملكة الخلقية ، وأعنى بالملكة الروحية ما يسمى اليوم بيقظة الضمير ، أو الحاسة السادسة . . . تراه سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، مفرط الحس حاد الشعور حتى إنه يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينها ، ذا فراسة يعتمد عليها ويرى أن: «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » فراسة يستشف بها ما وراء الحجب ، ويستنبط الأسرار بالنظر الثاقب ، ويكشف الخفايا ، ويستضيح البواطن ويستخرج المعانى التى تدق على الألباب ، وينظر إلى الغيب بستر رقيق .

العبقرى إذا كان عالما كان بمستوى حضارى إنسانى عالمى، يتجاوز الألوان واللغات والمعتقدات، وإن كان كاتبا، وجدت لكتبه طعما خاصا وذوقا معينا وذلك لعالميته فى القراءة ولإنسانيته فى الثقافة، إنه يتناول المواضيع برحابة صدر، بعيدا عن الكزازة والتصنع والتقليد المقيت، ويتذوق مع آيات الكتاب آيات الآفاق والأنفس لينال كرم الله وكرامته ، وإن كان حاكما رأيت فى سيرته السماحة والعدل ، والنجابة والفضل ، والشجاعة القاهرة ، والبطولة النادرة ، والحكمة التى تركت مواريثها للأجيال، فصارت نورا يشع، وزادا يشبع، فهو ممتاز بعلمه وكتابته، ممتاز بتكوينه ، جدير بالهيبة والإعظام ، خليق أن يحسب له ألف حساب . . . رسخت فى طويته صفات النبل حتى أصبحت كالوظيفة التى لا تنفصل عنه، وتمكنت منه حتى جرت على لسانه عامدا أو غير عامد، فهو متفرد بها لدرجة أنه صار من أجلها وحيد زمانه ، غريب عصره، وصار كما قال الشاعر :

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب

فلا عجب إذا أجمع المؤرخون بمختلف أجناسهم وأديانهم على الاعتراف بعظمته ، وأجمعوا على لقب لم يختلف اثنان منهم عليه كلقب العدل أو العلم ، أو الزهد ، أو البطولة أو الحكمة أو غيره . . .

هذه النعم الربانية تجعلك إذا تحدثت عنه تجد فى حديثه صلة بالنفس الإنسانية فى كل مناحيها، وفى سيرته ملتقى للعوطف الجياشة، والأحاسيس المتطلعة إلى الرحمة

والإكبار، وملتقى للخيال حيث دار حول كريم شمائله، وملتقى مع الذوق الأدبى والفنى تراه فى نهجه الأدبى ملتقى للعاطفة المشبوبة المتوقدة الأحاسيس المتطلعة إلى الرحمة والإكبار ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب ﴾

[يوسف :١١١]

وأعيذك بالله ـ أخى القارئ ـ من تلك الشخصيات التى تضفى على نفسها أو يضفى عليها صفات وخصائص العبقرية عن طريق التزييف والكذب وقلب الحقائق، فتلك عبقرية قد تخدع البعض فيؤمنون بها، ولكنها لا تصمد أمام التاريخ الذى لا يمكن أن تسجل صفحاته إلا الحقائق، حقائق الأعمال والتصرفات والصفات والخصائص التى تضع العبقرى فى مكانه الصحيح .

فمن علامات العبقرى أن يختص بقدرتين لا تعهدان فى غيره :

أولاهما: :أن يبعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها وخدمة الإنسانية جمعاء . . .

وثانيتهما :أن ينفذ ببصيرته إلى أعماق النفوس ، فيعرف بالبديهة الصائبة ، والتمييز الثاقب والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوانه ، وتجب ندبته ،ومتى ينبغى التريث فى أمره إلى حين (١) . وإنى لأرجو أن يمتد جهد طائفة من الباحثين ومن الأساتذة المختصين إلى استكمال هذا الموضوع بما يزيد العبقرية ثروة وازدهارا .

(١) عبقرية عمر ص١١ .